استاذنا الامام

حجة الاسلام

السيد محمد رشيد رضا

بقلم الشيخ أحمد محمد شاكر

فقد الاسلام في هذه الايام عَلَماً عالياً من أعلامه ، وإماماً حجةً من ائمة الهدى ، ومجاهداً كبيراً ، ومصلحاً عظيماً ، عاش حميداً ومات شهيداً [1]

ولد استاذنا الامام (السيد محمد رشيد رضا) رضي الله عنهُ في يوم الاربعاء ٢٧ جمادى الاولى سنة ١٢٨٢ (١٨ اكتوبر سنة ١٨٦٥) بقرية (القلمون) ، وهي قرية من قرى جبل لبنان على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، وتبعد عن مدينة (طرابلس الشام) نحو ثلاثة أميال

وأسرة ابيهِ من السادة الاشراف الذين ينتهي نسبهم الى جدّنا الأعلى سيدنا الحسين بن علي عليهما السلام ، وهم من اهل العلم والارشاد والرياسة ، ذوو كرم وكرامة ، ودين وتقوى ، وعزة نفس وترفع . وقد عاشرنا في مصر منهم افراداً ، فكانوا من أنبل الناس خُلُقاً ، وأطهرهم قلباً ، واصدقهم حديثاً . وكان ابوهُ من اعز الرجال نفساً ، وأجرئهم جناناً ، واسخاهم يداً . وأمهُ : من أسلم النساء فطرة ، وأكرمهن أخلاقاً ، وأوفاهنَّ لزوج ، وأحناهنَّ على ولد . واسرة امه ينتهي نسبها الى سيدنا الحسن بن علي عليهما السلام

اول ما تعلمَّ — رحمهُ الله — في كتّاب قريتهِ ، فتعلم قراءة القرآن والخط وقواعد الحساب الأربع ، ثم ادخل في (المدرسة الرشدية) بمدينة « طرابلس الشام » وهي مدرسة ابتدائية للدولة العثمانية ، يدرس فيها الصرف والنحو والحساب ومبادىء الجغرافية ، والعقائد والعبادات ، واللغة العربية واللغة التركية ، وكان جميع التدريس فيها باللغة التركية [2]

ثم دخل « المدرسة الوطنية الاسلامية » في سنة ١٢٩٩ وهي أرقى من المدرسة الرشدية ، وجميع التعليم فيها باللغة العربية ، الاَّ اللغتين التركية والفرنسية . وتدرس فيها العلوم العربية والشرعية ، والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية . وكان استاذه العلامة الشهير « الشيخ حسين الجسر الازهري »

---

(١) فانه رحمه الله خرج مع ركب الامير سعود حين سفره من مصر الى الحجاز ، فذهب معهم الى السويس ، ومات في العودة عند ما وصل الى مصر الجديدة ، وما كان خروجه هذا مجاملة أو تقرباً للامير ، وانما كان ليحدثه في شؤون المسلمين ويعرض عليه آراءه في طرق الاصلاح ، ليمرضها سمو الامير على جلالة والده الملك عبدالعزيز بن السعود ، فكان خروجه عملا من أعمال الجهاد في سبيل الله ، ولم يقر جسمه في هذه السن على احتمال الشاق ، فمات مجاهداً شهيداً ، ان شاء الله . وكان ذلك في يوم الخميس ٢٣ جمادى الاولى سنة ١٣٥٤ (٢٢ اغسطس سنة ١٩٣٥)

(٢) المنار والازهر (ص١٣٩)

هو المدبر لها ، بعد أن كان هو الذي سعى لتأسيسها ، لأن رأيه أن الامة الاسلامية لا تصلح ولا ترقى الا بالجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا على الطريقة العصرية الاوربية ، مع التربية الاسلامية الوطنية ، تجاه التربية الاجنبية في مدارس الدول الاوربية والامريكانية [1]

فلم يدخل المدارس الا بعد تجاوزه الخامسة عشرة من عمره ، وكان ذلك عن رأي والده وإرشاده ، خوفاً عليه مما يعرض في المدن للناشئين من الفتن . فلما أن وثق من دينه وخلقه ورشده أذن له بالاقامة في مدينة طرابلس الشام لطلب العلم في المدارس

وكان قبل دخوله المدارس شديد العناية بمطالعة كتب الأدب وكتب التصوف . قال في كتابه « المنار والازهر » ص ١٤٠ « وكان أحب كتب التصوف اليّ احياء علوم الدين لحجة الاسلام أبي حامد الغزالي ، فهو الذي طالعته كله ، وكنت اكثر مراجعته وقراءة بعض ابوابه عوداً على بدء . ثم صرت أقرؤه للناس ، وكان له اكبر التأثير في ديني واخلاقي وعلمي وعملي . وإنهُ لتأثير صالح نافع في اكثره ، ضارٌّ في أقله . وقد طلبت الضار منهُ بعد العلم به : فما كان فيه من خطأ علمي فقد رجعت عنهُ بالتدريج ، بعد اشتغالي بعلم الحديث ، ولاسيما عقيدة الجبر والتأويلات الاشعرية والصوفية والغلوّ في الزهد ، وبعض العبادات المبتدعة . وأما تأثيره الوجداني في الزهد واحتقار الدنيا والمتكالبين عليها وعلى وظائف الحكومة — : فلم استطع الاعتدال فيه ، فضلاً عن التفصي منهُ »

وقد تلقى العلم عن كثير من العلماء الاعلام . فمنهم العلامة الشهير الشيخ حسين الجسر : أخذ عنهُ العلوم العربية والشرعية والعقلية . ومنهم شيخ الشيوخ الشيخ محمود نشابة : أخذ عنهُ الحديث وفقه الشافعية . ومنهم العالم المحدث العابد الشيخ محمد القاوقجي الكبير : تلقى عنهُ بعض مؤلفاته في الحديث . ومنهم العلامة الشيخ عبد الغني الرافعي : حضر عليه قليلاً من نيل الاوطار للشوكاني ، واستفاد كثيراً من معاشرته في العلم والادب والتصوف

ونشأ عابداً متعبداً ، زاهداً متنسكاً ، يذهب الى المسجد في السحر ، ولا يعود الى البيت الا بعد ارتفاع الشمس ، ويصلي في الليل متهجداً تحت الاشجار في بساتين آله . ورباه أهله ثم ربى نفسه على الحياء والصدق والاخلاص والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والشجاعة في ذلك ، فلا يخشى الا الله

وكمل نفسه بكثير من العلوم العصرية ، ووسع دائرة تفكيره بالاطلاع على شؤون الاجتماع وسياسة العصر . فكان يطالع المجلات العلمية ، وفي مقدمتها « المقتطف » والمجلات السياسية وأهمها « العروة الوثقى » التي كان يصدرها في باريس المرحوم الاستاذ السيد جمال الدين الافغاني والمرحوم الامام الشيخ محمد عبده . ولقد حدثني صديقي الكاتب الفاضل السيد محيي الدين رضا انهُ سمع عمه المرحوم السيد رشيد يعترف بفضل « المقتطف » عليه في توسيع دائرة معارفه في نشأته ، وانهُ كان يواظب على قراءته ما وجد سعةً من وقته

(١) المنار والازهر ص ١٣٩ و ١٨١)

واما مجلة (العروة الوثقى) فانها كان لها اكبر الاثر في توجيه تفكيره الى الوجهة الاصلاحية للمسلمين[١] والى وضع منهج واضح يسير عليه في سبيل الاصلاح . وقد اتبع ما رسم لنفسه من خطة ، لم يحد عنهُ قيد شعرة ، حتى لقي الله

واوتي موهبة الكتابة العالية في إبان نشأته ، ونشر بعض مقالات في جريدة (طرابلس) فكان محفباً بطبعه وفطرته ، ومازال يكتب ويحرّر الى حين وفاته. فكان من ابلغ الكتاب قلماً، واوسعهم مجالاً ، واقومهم بحُجة

وقد عزم على الاتصال بالمرحوم السيد جمال الدين الافغاني « لتكميل نفسه بالحكمة والجهاد في خدمة الملة ، فلما توفاه الله تعالى اليه، واشتهر ان السياسة الحميدية هي التي قضت عليه ، ضاقت عليه المملكة العثمانية بما رحبت ، وعزم على الهجرة الى مصر ، لما فيها من حرية العمل واللسان والقلم ، ومن مناهل العلم العذبة الموارد ، ومن طرق النشر الكثيرة المصادر . وكان اعظم ما يرجوه من الاستفادة في مصر الوقوف على ما استفادهُ الشيخ محمد عبده من الحكمة والخبرة وخطة الاصلاح التي استفادها من صحبة السيد جمال الدين ، وان يعمل معهُ وبارشاده في هذا الجوّ الحرّ » [٢]

ثم يسّر الله لهُ اسباب السفر الى مصر ، ورضي به والداه رحمهما الله ، ولما وصل الى بيروت في طريقه الى مصر عرض عليه عبد القادر افندي القباني ان يقيم في بيروت ، ويتولى رئاسة التحرير لجريدته (ثمرات الفنون) . قال السيد رحمهُ الله : « فقلت لهُ : ان الحرية التي في بيروت لا تسعني قال : او تريد ان تنقد جلالة السلطان عبد الحميد او تخوض في سياسته ؟ قلت : انما أريد اصلاح الاخلاق والاجتماع والتربية والتعليم . قال : إن لك أوسع الحرية في هذا . قلت : إذا أردت ان أكتب في فضيلة الصدق ومضارّ الكذب ومفاسده فأبيّن ان أكبر اسباب فشوّ الكذب في الامم الحكم الاستبدادي ، أتنشر لي ذلك جريدتكم ؟ ! قال : لا، لا ، عجّل بالذهاب الى مصر ولا تخبر أحداً ! [٣] »

ويجدر بنا في هذا الموضع أن نصحح خطأ مشهوراً ، يظنه اكثر الناس صواباً ، وذلك : انهم يزعمون أن السيد رشيد رحمهُ الله جاء الى مصر لاتمام الدراسة العلمية ولذلك تتلمذ للشيخ محمد عبده. والحقيقة انهُ رحمهُ الله لم يغادر بلاده الاّ بعد اتمام دراسته ، وبعد نيل الشهادة العالمية والاذن لهُ من شيوخه بالتدريس ، وكان قد جاوز الثلاثين من عمره. وانما اتصل بالاستاذ الشيخ محمد عبده كما يتصل العالم الصغير بالعالم الكبير ، وبقي تلميذاً لهُ — على هذا المعنى — الى حين وفاته ، كما كان يفعل سلفنا الصالح رضي الله عنهم ، ولو بقي الاستاذ الشيخ محمد عبده حيًّا الى الآن لبقي السيد رشيد تلميذه الى الآن ، ولوفّى لهُ في حياته كما وفى لهُ بعد مماته ، رضي الله عنهما

(١) تاريخ الامام محمد عبده (ج١ص٨٤ و ٣٠٣ و٩٩٥—٩٩٦) (٢) المنار والازهر(ص ١٩١)
(٣) المنار والازهر(ص ١٩٢)

السيد محمد رشيد رضا

فكان السيد رحمه الله مع الاستاذ الامام تلميذاً لهُ وصديقاً ، وناصحاً ومخلصاً ، وكان مستودع أسراره والداعية لآرائه ، والمدافع عنهُ في كل معركة من معارك جهاده . بل كان كما وصفهُ الاستاذ الامام — لوالدي الاستاذ الاكبر الشيخ محمد شاكر حفظه الله — « ترجمان افكاره »

جاء السيد رشيد الى مصر وقد وضع نصب عينيهِ صحبة الاستاذ الامام ، ثم انشاء صحيفة اصلاحية يستمد فيها من حكمته وخبرته . فوصل الى الاسكندرية مساء الجمعة ٨ رجب سنة ١٣١٥ ٣٥ يناير سنة ١٨٩٨ ، فأقام فيها أياماً ثم انتقل منها الى طنطا فالمنصورة فدمياط ، ثم عاد الى طنطا وسافر منها الى القاهرة قبيل الظهر من يوم السبت ٢٣ رجب « ١٨ يناير سنة ١٨٩٨ » وفي ضحوة اليوم الثاني (الأحد ٤ رجب) ذهب الى زيارة الاستاذ الشيخ محمد عبده في داره بالناصرية . ثم اتصل الأمر بينهما واستشار السيد أستاذه في انشاء الصحيفة التي يريدها ، وشاوره في تسميها ، وذكر له اسم (المنار) . مع أسماء أخرى ، فاختار الامام اسم (المنار) . ثم شرع السيد في تحريره ، وكتب فاتحة العدد الأول بقلم الرصاص في جامع الاسماعيلي المجاور لدار الاستاذ بالناصرية — وكان ذلك في منتصف شوال سنة ١٣١٥ (مارس سنة ١٨٩٨) — وذهب بها الى داره وعرضها عليه ، فأعجب بها كل الاعجاب ، وارتضى كل ما ذكره فيها من المقاصد والاغراض ، إلا كلمة واحدة : هي تعريف الأمة بحقوق الامام ، والامام بحقوق الأمة . قال ما معناه : « إن المسلمين ليس لهم اليوم إمام إلا القرآن ، وإن الكلام في الامامة مثار فتنة يخشى ضره ولا يرجى نفعه الآن » فحذف السيد هذه الكلمة عن رأي الأستاذ وإشارته[1]

وقد اقترح السيد على الاستاذ الامام عقيب اتصاله به — وكان أول اقتراح له عليهِ — أن يكتب تفسيراً للقرآن ينفخ فيهِ من روحه التي وجد روحها ونورها في مجلة (العروة الوثقى) فاعتذر الامام عن ذلك . فاقترح عليهِ أن يقرأ دروساً في التفسير ، فكان يعتذر ، ثم لم يزل بهِ حتى أقنعهُ برأيه ، فبدأ الاستاذ الامام في قراءة التفسير بالأزهر الشريف في غرة المحرم سنة ١٣١٧ وانتهى منهُ في منتصف المحرم سنة ١٣٢٣ عند تفسير قوله تعالى « وكان الله بكل شيء محيطاً » من الآية ١٢٦ من سورة النساء ، فقرأ زهاء خمسة أجزاء في ست سنين ، ثم توفي الامام الى رحمة الله يوم ٨ جمادى الاولى سنة ١٣٢٣ . وكان السيد رحمهُ الله يكتب في أثناء الدرس مذكرات بأهم ما يقوله الاستاذ ، ثم بدا لهُ باقتراح بعض الراغبين في الاطلاع على تفسير الامام : أن ينشر هذا التفسير في المنار ، فشرع في ذلك في المحرم سنة ١٣١٨

قال السيد رحمهُ الله : « وكنت أولاً أطلع الاستاذ الامام على ما اعده للطبع كلما تيسر ذلك بعد جمع حروفه في المطبعة وقبل طبعه ، فكان ربما ينتج فيه بزيادة قليلة او حذف كلمة او كلمات ، ولا اذكر انهُ انتقد شيئاً مما لم يره قبل الطبع ، بل كان راضياً بالمكتوب بل معجباً به . على انه لم يكن

(١) تاريخ الاستاذ الامام (ص ٩٦٥ — ١٠٠٥ و ص ٩١٣)

كله نقلاً عنهُ ومعزوًّا اليهِ ، بل كان تفسيراً للكاتب من انشائه ، اقتبس فيهِ من تلك الدروس العالية جل ما استفاده منها »[1]

ثم استقلَّ السيد رحمهُ الله بعبء التفسير وحده بعد أستاذه فقام بهِ خير قيام، بل فاق في هذا المجال استاذه الامام . فان الاستاذ الشيخ محمد عبده انما كان روحاً وثاباً ، وحكيماً عظيماً ، وقائداً ماهراً ، ولكن لم يكن مطلعاً على السنة النبوية اطلاعاً كافياً ، ولا يكون ، المفسر للقرآن مفسراً حقًّا الاَّ بالتوسع في دراسة الحديث النبوي والتشبع منه ، لان رسول الله صلى الله عليهِ وسلم أمر ببيان الكتاب للناس ، فقوله وفعله وكل حالاته شرح لهذا الكتاب الكريم

وقد أتمَّ السيد تفسير اثنى عشر جزءاً من اجزاء القرآن ، طبعت كلها . وفسر بعض آيات من اول الجزء الثالث عشر ، ثم فقدناهُ أحوج ما كنا اليهِ ، رحمهُ الله ورضي عنهُ

وان اخوف ما كنت اخاف هو هذا الموقف الذي صرنا اليه : مات السيد رشيد ولم يكمل تفسير القرآن . ولقد أذكر أني تحدثت اليهِ في هذا المعنى منذ عشرين سنة تقريباً ، وكنت من اقرب الناس اليهِ وأبرّهم به ، فألححت عليهِ في ان يرجه عزمه وهمته الى اتمام التفسير ، وان يدع كل مشاغله الاخرى ويتفرغ لهذا العمل الجليل النافع ، الذي لا نعرف احداً من العلماء يضطلع بهِ ، ولا نرى له أهلاً غيره . ولكن هكذا قُدِّر فكان . ولعلنا نجد من علمائنا من يوفق لاقتفاء أثر السيد رحمهُ الله في تفسير القرآن حتى يتمهُ . ان شاء الله

وبعد : فان آثار السيد رشيد في دفاعهِ عن الاسلام ، وتقريبهِ للاذهان لا يحصيها مقال او كتاب ، فانهُ رجل مكث قريباً من اربعين سنة يكتب في مجلتهِ وفي الصحف الاخرى ، ويؤلف الكتب والرسائل ، كل هذا لله وفي سبيل الله ، ولا يخشى في الله لومة لائم . ولكن أعظم آثاره وأنفعها ، وأرجاها للمسلمين ، وأبقاها على الدهر — : هو هذا التفسير العظيم

واني كنت قد وصفت بعض مزاياه في مقال نشرتهُ في مجلة (المنار) في العدد (٣ من المجلد ٣١) ربيع الآخر سنة ١٣٤٩ سبتمبر سنة ١٩٣٠ — ومما قلت فيهِ : إنهُ «خير تفسير طبع على الاطلاق، ولا أستثني ، فانهُ هو التفسير الأوحد الذي يبين للناس اوجه الاهتداء بهدي القرآن على النحو الصحيح الواضح — إذ هو كتاب هداية عامة للبشر — لا يترك شيئاً من الدقائق التي تخفى على كثير من العلماء والمفسرين »

«ثم هو يظهر الناس على الاحكام التي تؤخذ من الكتاب والسنة ، غير مقلد ولا متعصب ، بل على سنن العلماء السابقين : كتاب الله وسنة رسوله . ولقد أوتي الاستاذ من الاطلاع على السنة ومعرفة علمها، وتمييز الصحيح من الضعيف منها — : ما يجعله حجة وثقة في هذا المقام، وأرشده الى فهم القرآن حق فهمه»

«ثم لا تجد مسألة من المسائل العمرانية او الآيات الكونية الاَّ وأبان حكمة الله فيها ، وأرشد الى الموعظة بها ، وكبت الملحدين والمعترضين بأسرارها ، وأعلن حجة الله على الناس . فهو يسهب

(١) تاريخ الاستاذ الامام ص (٢٦٥ — ٢٦٨) وتفسير المنار (ج ١ ص ١٢ — ١٥)

في ازالة كل شبهة تعرض للباحث من ابناء هذا العصر ، ممن اطلعوا على اقوال الماديين وطعونهم في الاديان السماوية ، ويدفع عن الدين ما يعرض لاذهانهم الغافلة عنهُ ، ويظهرهم على حقائقهِ الناصعة البيضاء ، مع البلاغة العالية ، والقوة النادرة . لله دره ! » ...

« ولقد عرض للكثير من المشكلات الاجتماعية والسياسية التي عرضت في شؤون المسلمين فأفسدت على كثير من شبانهم هداهم ودينهم ، فحللها تحليلاً دقيقاً . وأظهر الداء ووصف الدواء من القرآن والسنة ، وأقام الحجة القاطعة على ان الاسلام دين الفطرة ، وأنهُ دين كل أمة في كل عصر . ونفى عن الاسلام كثيراً مما ألصقهُ بهِ الجاهلون ، أو دسهُ المنافقون ، من خرافات وأكاذيب كانت تصد فئة من أبنائه عن سبيله ، وكان اعداؤه يجعلونها مثالب يلعبون بسببها بعقول الناشئة ليضموهم الى صفوفهم ، وينزعوهم من أحضان أمتهم »

« وإنهُ لكتاب العصر الحاضر يفيد منهُ العالم والجاهل والرجعي والمجدد بل هو الدفاع الحقيقي عن الدين »

« وأنا أرى من الواجب على كل من عرف حقائق هذا التفسير أن يحض إخوانه من الشبان على مطالعته ، والاستفادة منهُ ، وبث ما فيهِ من علم نافع . لعلَّ الله أن يجعل منهُ نواة صالحة لاعادة مجد الاسلام ، وأن ينير بهِ قلوباً أثلمت من ملئها بالجهالات المتكررة »

ولو شئنا أن نطيل في ترجمة السيد رشيد وتعداد مناقبه وفضائله ، أو في بيان مزايا تفسيره ونفعه للناس عامة — لكان مجال القول أمامنا واسعاً ، ولا عجزنا ان نستوعب ما نريد من ذلك . ونسأل الله سبحانهُ أن يجزيه عن المسلمين خير الجزاء ، وأن يجعلهُ من السابقين الأولين

وإن الاخ الفاضل السيد عبد الرحمن عاصم — ابن عم أستاذنا وصهره — أعلم الناس بسيرته الشخصية والاجتماعية ، والسياسية الاسلامية والعربية ، وقد شهد لهُ بذلك السيد رشيد نفسه في كتاب المنار والازهر (ص ١٩٤) . وأنا أرى انهُ جدير بهِ أن يكتب ترجمة وافية ، أو يعين غيره على كتابتها ، وقد عاش معهُ نحواً من خمس وعشرين سنة ، ويخيل اليَّ أن هذه الشهادة للسيد عاصم تشير الى رغبة الاستاذ في ذلك ، وكأنها وصية منه ينبغي تحقيقها

وبعد فان من أمارات الخير ودلائل التوفيق أن السيد — رضي الله عنه — ركب السيارة يوم وفاته من السويس ، وشرع في قراءة القرآن ، ولم ينقطع عن التلاوة حتى قبضهُ الله اليهِ في مصر الجديدة

وأخيراً : أن آخر ما كتب في تفسير القرآن تحت عنوان (دعاء يوسف عليهِ السلام بحسن الخاتمة) أنهُ فسر قوله تعالى حكايةً عن النبي يوسف عليهِ السلام (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) ، وكتب في آخر تفسيرها : « فنسأله تعالى ان يجعل لنا خير حظٍ منهُ بالموت على الاسلام » . فكانت دعوة استجيبت ، وكانت — ان شاء الله — أمارة حُسْن الختام